

الأربعون

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوءٍ وسكونٍ حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعثر في طريقي عثرة تهوي بي إلى المصرع الأخير هويًا.

سلامٌ عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميدانًا فسيحًا للآمال والأحلام، وكنا نظير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمام البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل نعتقد أنّ في العالم همومًا وآلامًا. وكان كل شيء في نظرنا جميلًا حتى الحاجة والفاقة، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها، كان كل منظر من مناظرك قد لبس ثوبًا قشيبًا من نسيج الزهر الأبيض، فأصبح فتنة الأنظار، وشرك الألباب!

وكان يخيل إلينا أنّ هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطردًا متدفعًا لا يعترضه معترضٌ، ولا يلوي به عن طريقه لاي إلى ما لا نهاية لاطراداه وتدفعه.

وكان كل ما نعالج فيك من آلامٍ وهموم أن يكون لنا مأربان من مأرب الحياة، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر، أو غرضان من أغراضها، فنصل إلى القريب ونبيت دون البعيد.

وكان كل ما يستدرف الدمع من أعيننا هجر حبيبٍ أو طلعة رقيبٍ، أو أرق ليلةٍ أو ضجر ساعة، أو نظرةٍ شزر يلقيها علينا بغیض، أو نفثة شر يرمينا بها حقود، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجتنا أن تطرد تلك الآلام أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقدار والأكدار بين يديه، وتسلم لنا الحياة سائغةً لا كدر فيها ولا تنغيص.

سلامٌ عليك أيها الشبابِ الزاهب، سلامٌ على دوحتك الفينانة الغناء، التي كنا نمرح في ظلها مرح الضباء الغفر في رملتها الوعثناء، ننظر إلى السماء فيخيل إلينا أنها مغدّى ومراحٌ لنا، وإلى الآفاق البعيدة فيخيل إلينا أنها مجرى سوابقنا ومجرٌّ رماحنا، فكأن العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرف في أيِّ أقطارها شئنا. أبكيك يا عهد الشباب، لا لأنني تمتعت فيك براح أو غزلٍ، ولا لأنني ركبت مطيتك إلى لهوٍ أو لعبٍ، ولا لأنني نقت فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون، بل لأنك كنت الشباب وكفى!

أبكيك لأنني كنت أرى في سمائك نجم الأمل لامعًا متلألئًا يؤنسني منظره ويطربني لألوه، وينفذ إلى أعماق قلبي شعاعه المتوهج الملتهب، فلما زهبت ذهب بذهابك، فأصبح منظر تلك السماء منظر فلاةٍ موحشةٍ مظلمة لا يضيئها كوكب ولا يلمع فيها شعاعٌ. أجل، لم أتمتع فيك بمتعةٍ من المتع، ولا بلذةٍ من الملاذ، ولا نلت في عهدك مآربًا من مآرب المجد أو الجاه، ولكنني كنت أوّمل وأرجو، وبذلك الأمل كنت أعيش، وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهناً وأنعم.

أما اليوم — وقد بدأت أُنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر — فقد احتجب عني كل شيء، ولم يبقَ بين يدي مما أفكر فيه إلا أن أعد عدتي لتلك الساعة الرهيبة التي أُنحدر فيها إلى قبري.

مضي عهد الشباب وبدأت أختلف إلى الأطباء الثلاثة: طبيب العيون، وطبيب المعدة، وطبيب الأسنان، وتقاربت خطواتي فأصبح فرسخي ميلاً، وباعي ذراعاً، ونعى الناعون إليّ كثيراً من أصحابي وأترابي؛ أي إنهم نعوإ إليّ نفسي، ورأيت أصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي فأنكرت استحالة حالهم، واغبرار وجوههم، وتحمّر خدودهم، وابيضاض شعورهم، فعلمت أنني أولهم، وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم. ودعا لي الداعون بالقوة والنشاط، وطول البقاء، وحسن الختام؛ أي إن قوتي في هبوطٍ، ونشاطي في اضمحلالٍ، وسلامتي في خطر، وحياتي على وشك الانحدار إلى مغربها.

ومررت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة والنشاط والمرح والسرور فخيل إليّ أنني غريب عنهم، لا صلة لي بهم ولا شأن لي معهم، وأني أعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه. وانتقلت من النظر في شأن نفسي وشأن مستقبلي إلى النظر في شأن أولادي وشأن مستقبلهم؛ لأن مستقبلي أصبح ماضياً، وغداً أصبح أمس لا رجعة له إلى الأبد. وسمعت كلمة «الجد» يهتف بها أحفادي الصغار، فلم أنكرها ولم أبتئس كأنني معترف

أنها الكلمة التي يجب أن أسمعها. ونصحتني الناصحون بالاقتصاد والتدبير إبقاء على مصلحة أولادي الفقراء، كأنهم يقولون لي: إنك موشك أن ترحل فأعدّ لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يغنيهم عنك يوم يفقدون وجهك. وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماعها، فأصبحت سمحاً كريماً، عفواً غفوراً، لا أبغض أحداً، ولا أحقد على أحد، ولا أقابل ذنباً بعقوبة، ولا إساءة بمثلها، كأنني أقول في نفسي: ما لي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيغاً، إن لم يكن اليوم فعداً؟ وأخذت أتحدث عن الماضي أكثر مما أتحدث عن الحاضر، لا لأن الأول أجمل من الثاني؛ بل لأن الشبيبة أجمل من الشيوخة. وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها أيام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء، فبكيته ورثيتها ولم تُنسنني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلاً ومجداً وشرفاً؛ لأن الأولى كانت في سماء الأحلام الحلوة اللذيذة، أما الثانية ففي أرض الحقيقة المرة المؤلمة.

وكنت أنعم في صباي بكثير من الملأ اللوهمية الكاذبة، فكنت أجد في نفسي غبطة عظمت حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة، أو سيرة سيف بن ذي يزن، أو حروب عنتر، أو وقائع أبي زيد، أو أساطير الجن والشياطين. وحين أوي إلى مضجعي فأرى في منامي رؤى بديعةً يجتمع لي فيها جميع ما أحب وأشتهي من مطامع الحياة ومآربها، وملاذ العيش ومباهجه. وحين أختلف إلى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة أمام حلقات أبوابهم، فأشعر بسكينة في قلبي يبعثها الأمل ويزجيها الرجاء. والآن وقد حُرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها أنّ أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل، وأنّ الرؤى والأحلام هوس وجنون، وأنّ الأولياء والصالحين — أحياءً أكانوا أم أمواتاً — في شاغلٍ بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضرراً؛ أي إنني شقيت حين علمت، وكنيت سعيداً قبل أن أعلم. وكان كل ما أفكر فيه أن أشيد لي بيتاً جميلاً أعيش فيه عيش السعداء الأمنين في مدينة الأحياء، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن أبني لي قبراً بسيطاً يضم رفاتي في مدينة الأموات. وكنيت أدهش بلباغة البلوغ، وذلاقة الخطيب، وبراعة الشاعر، وقدرة الكاتب الصائغ، ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل عظيم وجليل مما أرى ومما أسمع، فأصبحت لا أدهش لشيء ولا أعجب من شيء؛ لأنّ مرآة نفسي قد صدت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها؟

ما أنا بأسف على الموت يوم يأتي، فالموت غاية كل حيٍّ، ولكنني أرى أمامي عالمًا مجهولًا لا أعلم ما يكون حظي منه، وأترك ورائي أطفالًا صغارًا لا أعلم كيف يعيشون من بعدي، ولولا ما أمامي ومَن ورائي ما باليت أسقطت على الموت أم سقط الموت علي؟! ليكن ما أرادته الله، أما ما أمامي فالله يعلم أنني ما ألمت في حياتي بمعصيةٍ إلا وترددت فيها قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها، ولا شككت يومًا من الأيام في آيات الله وكتبه، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره، ولا أذعنت لسُلطان غير سلطانه، ولا لعظمةٍ غير عظمته، وما أحسب أنه يحاسبني حسابًا عسيرًا على ما فرطت في جنبه بعد ذلك. وأما مَن ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها، والقطاة في أفحوصها، والعصفور في عشه، والفرخ في وكره، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين وسيبسط عليهم ظلَّ رحمته وإحسانه.

وداعًا يا عهد الشباب، فقد ودعت بوداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء وانقضى كل شيء!

أيا عهدَ الشباب وكنت تَنُدى على أفياءٍ سرَّحتك السلامُ